

فريق التفريغ بموقع الطريق إلى الله
يقدم
من دروس الدورة العلمية "بصائر3"
الدليل والاستدلال
(باللهجة المصرية)



لفضيلة الشيخ: د. محمد فرحات

رابط المادة: <http://way2allah.com/khotab-item-136431.htm>

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

إن الحمد لله تعالى نحمده ونستعين به ونستغفره، ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.
أما بعد:

حياكم الله إخواني الأفاضل، وأخواتي الفضليات، ومرحباً بكم مع هذه الدورة المباركة "دورة بصائر"، وإن شاء الله سيكون لنا في لقائنا هذا **مداخلة لفهوم الدليل**.

الحقيقة هذا من الأشياء التي يحتاج الإنسان المسلم المُستَبصر في دينه إلى أن يكون له مفهوم واضح حول الدليل، ما معنى الدليل؟ وما هي آلية الاستدلال؟ ما هي وظيفة الدليل في دين الله - سبحانه وتعالى-؟ وما هي الأدلة؟ كل هذه الأسئلة يبنى عليها البنيان العلمي للإنسان المؤمن، والتي بناءً عليها سيكون له بعد العلم يكون العمل.
فلا أساس لعلم إلا إذا وضعت له أسس وقيم ومعايير، علم بلا أساس هو لا يكون علماً أصلاً، وعلوم الشرع متوقفة على الدليل، وهذا هو ما نبدأ به، ما هو الدليل؟ ما معنى الدليل؟

معنى الدليل

أولاً نبدأ في تحليل كلمة الدليل، وتحديد مفهوم الدليل.

الدليل في اللغة: هو المرشد إلى المطلوب؛ شيء يُرشدني إلى شيء أنا أطلبه، منها مثلاً دليل القافلة: الرجل الذي يدل القافلة على مكانها، ويدلها على كيفية سيرها، فهو الذي يُرشدهم في الطريق.

الدليل من الناحية الاصطلاحية قال أهل العلم حول تعريف الدليل: هو ما يمكن التوصل بصحيح النظر فيه إلى مطلوبٍ خبري.

مرة أخرى ما هو الدليل؟ هو ما يمكن التوصل بصحيح النظر فيه إلى مطلوب خبري. ما معنى هذا؟

نقول التعريف بشيء من التبسيط، الدليل هو: الشيء الذي إذا أمعنت النظر فيه، إذا تفكرت فيه تفكيراً صحيحاً أستطيع الوصول إلى شيء هذا الشيء المطلوب مني أن أعلمه، مطلوب أن أخبر به.

فهذا الدليل -لاحظ دقة التعبير الذي وضعه أهل العلم- هو شيء يمكن التوصل به.. لاحظ: يمكن التوصل به، لماذا قالوا يمكن التوصل به ولم يقولوا الشيء الذي يتم به كذا كذا كذا؟

قالوا: لأنَّ الدَّلِيلَ هو دليلٌ في ذاته حتى وإن لم يَسْتَدِلَّ به أحد، هو في ذاته دليل، هو أمانة ظاهرة، وعلامة واضحة، عندما وضعوا هذا القَيْدَ "ما يُمكن التَّوَصُّلُ به" للاحتراز عن التَّوَصُّلُ بالفعل، فالدليل الذي يستخدمه الإنسان وهذا الدليل بالفعل يمكن التوصل به إلى ما يتم الإخبار به هذا دليل، وكذلك الدليل الذي لم يستخدمه أحد، أو أخطؤوا في استخدامه، أو لم ينظروا إليه على أنه دليل، هو دليلٌ في ذاته.

لاحظ: لماذا نذكر هذا القيد؟ لأن هناك بعض الأدلة هي أدلة، وموجودة، وظاهرة، وواضحة، ولكن الإنسان غفل عنها، أو أخطأ في استخدامها. منها مثلاً: لو نظرنا إلى مفهوم الدليل بصفة واسعة، الأدلة على وجود الله - سبحانه وتعالى-، الأدلة على أن الله هو خالق هذا الكون هي أدلةٌ مُعْتَبَرَةٌ، وأدلةٌ ظاهرة وواضحة، وأدلة في قِمة الرسوخ، رُغم هذا هناك من البشر من يغفل عنها، وهناك من البشر من يتجاهلها، وهناك من يراها رأي العين ولا يَسْتَدِلُّ بها استدلالاً صحيحاً، هل معنى هذا أن هذا الدليل ليس بدليل؟ لا، هو دليل وحتى إن لم يَسْتَدِلُّوا به، أو حتى وإن أخطؤوا في كيفية الاستدلال به.

فهنا نقول في العلوم الشرعية الآية، والحديث، وغيرها، كلها تُسمى أدلة حتى وإن استخدمها البعض ولم يستخدمها البعض، أو استخدمها البعض ورآها دليلاً صحيحاً، أو استخدمها البعض وعارض في مفهومها أو في كيفية الاستدلال بها.

يبقى إذن الدليل دليلٌ بنفسه حتى وإن لم يَسْتَدِلَّ به أحد.

الفرق بين الدليل والنص

هنا أريد أن أشير أيضاً إلى تحديد دقيق لكلمة الدليل، هناك من يخلط بين كلمة الدليل والنص. الدليل كما ذكرنا: شيءٌ أنا أستخدمه للوصول إلى ما يتم الإخبار به.

كلمة النص مدلولها يدلُّ أصلاً على عدّة معانٍ، لكن لو ذكرنا هنا كلمة النص بمعنى - كما ذكر أهل العلم لتحديد مفهوم النص في باب الاستدلال - هو ما دلَّ على المراد منه بنفس صيغته من غير توقُّفٍ على أمرٍ خارجيٍّ وهو المقصود من السِّياق، نحن نُحدِّد معنى النص المقصود يعني شيء، نص موجود عندي، فيه آية أو حديث هذا النص أنا أستدلُّ به مباشرةً. فهنا الدليل أعم من النص.

لاحظ هذا: النص منطوقٌ صريح على الاستدلال. مثلاً: صلاة الظهر أربع ركعات، هذا نصٌ مثلاً، هنا أنا لا أحتاج إلى أي أمر خارجيٍّ؛ لكي أفهم دلالة هذا الكلام، هذا الكلام يدل مباشرةً على أن صلاة الظهر أربع ركعات، فهنا هذا نص في المسألة.

الدليل أعم من مجرد النص؛ فالدليل قد يكون نصاً صريحاً، وقد يكون استنباطاً من نص، وقد يكون نصاً مؤوَّلاً، وقد يكون نصاً مشتركاً في المعاني، وهكذا.

كل هذه الأشياء سوف نتعرض لها بإذن الله في خلال مدارستنا بشكل أوسع، لكن الذي أريد أن أركز عليه في هذا اللقاء أن كلمة الدليل أعم من النص.

بعض الناس يخلطون بين المعنيين فيقولون: "ليس هناك دليل على كذا" وهو هنا لا يفهم ما يقول، هو عندما يقول، مثلاً يقولون ماذا، ليس هناك دليل على الحجاب، ما الذي يعنون به؟
يعنون به أنه لم يرد نص بكلمة الحجاب، لم يرد نص في القرآن يأمر النساء "يا نساء المؤمنات تحجبن" لم يرد نص من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- "تحجبن" هم يقصدون هذا، يقصدون أنه لم يرد بالنص كلمة الحجاب ومشتقاتها، فهنا يقولون ليس هناك دليل على الحجاب!

وهم في شدة الجهل إن لم يكن شدة التجاهل، يعني هذا أمر الحقيقة يتم على إما جهل فطيع، وإما تدليس فطيع؛ لأن الدليل على الحجاب لا يكون بالنص فقط بالنص على كلمة الحجاب، بل قد يكون الدليل بشيء أكد من النص، وهذا ما حدث في الحجاب، أن مسألة الأمر بالحجاب لم تأت بالنص هكذا بكلمة الحجاب، إنما جاءت بما هو أكثر تأكيداً لتحجُب المرأة المسلمة. وهذا ليس مرادي من السياق، وإنما الذي أريده أن هناك من يخلط بين المفهومين بين مفهوم الدليل ومفهوم النص.

فنقول الدليل أوسع، الدليل أعم وأشمل من مجرد النص، النص أحد الأدلة، فقد يكون الدليل الذي استدُلُّ به نصاً في الموضوع، يعني تم التعبير عنه بالكلمات الواضحة الظاهرة التي لا تحتاج إلى أي تفسير
"لِلذِّكْرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ" النساء: ١١، مثلاً هكذا، هذا هو نص، نص واضح، لا يحتاج مني إلى إعمال عقل، لا يحتاج مني إلى شيء من الاجتهاد.

وقد يكون النص بشيء يحتاج إلى استنباط، وإلى فهم، وإلى عملية أخرى حتى أخرج بالحكم.

الدين قائم على الأدلة

لو أردنا أن نتكلم أيضاً عن مفهوم الدليل في الدين فنلاحظ أن فكرة وجود الدليل في دين الإسلام من الأمور الرئيسية والواضحة جداً، فالبناء العام والبنیان العام لهذا الدين قائم على هذا المفهوم "مفهوم وجود الدليل"، هو بنيان متماسك قائم على قواعد صلبة ألا وهي الأدلة، فليس هناك في هذا الدين شيء مبني على خيالات، ولا أوهام، ليس هناك شيء إلا ويدعمه الدليل.

فإن كان مثلاً هذا الشيء من قبيل الأخبار التي ترد إلينا، سنخبر بشيء، فتأتي الأدلة على صدق هذه الأخبار.
مثلاً: رسولنا -صلى الله عليه وسلم- عندما أخبرنا عن الخلق وعن البعث والحياة بعد الموت، كل هذه أخبار عن أمور غيبية، الذي يعارض الدين يقول لك: ما الدليل على صدق هذه الأشياء؟

فنحن نقول له: أتانا النص بكذا، وأتانا الدليل على صدق هذا النص بكذا وكذا وكذا وكذا، فتأتي الأدلة والبراهين على صدق هذا الكلام، وصدق من بلغ هذا الكلام، وتأتي الحجج الباهرة الواضحة التي تدلُّك على صدق الأخبار التي أخبرت بها، هذا في باب الأخبار.

أما لو كان من قبل التكليف -لاحظ- القاعدة الصلبة في هذا الدين أنه لا تكليف إلا بدليل، قاعدة لا تتغير ولا تتبدل، الأصل في الإنسان أنه لا يُكَلَّف إلا إذا جاءه دليل شرعي يدل على هذا التكليف؛ ولأجل هذا صاغ العلماء مفهوم براءة ذمة المُكَلَّف، صارت براءة الذمة قاعدة، وصارت أصلاً، أصلاً عظيمًا، تجتمع تحته الكثير من المسائل التي لها تفريعات داخل المسائل حتى الفقهية.

عندما مثلاً يناقشون مسألة ففريق يقول: يجب على المُكَلَّف كذا وكذا، حُكْم هذه المسألة الوجوب، أو حُكْم هذه المسألة الاستحباب، هناك فريق آخر يُنازع، يقول: ليس هناك دليل صريح أو دليل صحيح في المسألة، فيستدلون عليهم ويقولون ماذا؟ يقولون: ليس هناك إلزام بما قلتم، ويقولون لهم في معرض الاستدلال: والأصل براءة الذمة، أنتم تقولون أن هذا الرجل كُلف، ونحن نقول ليس هناك دليل بالتكليف، إذن نعود إلى الأصل الذي نرَكُنُّ إليه "لا تكليف إلا بدليل" هذه سنراها كثيرًا في الفروع الفقهية.

فلا بُدَّ للإنسان أن يفهم هذا الأصل الذي يتكلم عليه أهل العلم، الأصل براءة الذمة، وهذا ما يُعَبِّرون عنه بالبراءة الأصلية، ذمة الإنسان لا تُشغَل إلا إذا وَرَدَ التَّكْلِيفُ بهذا الأمر، وبالتالي لا يجب على المُكَلَّف شيء إلا إذا ورد به الدليل، ولا يَحْرُم على المُكَلَّف شيء إلا إذا ورد به الدليل.

فنلاحظ الشرع كله قائم على الدليل، ومن هنا تفهم لماذا أطلق العلماء على الأدلة كلمة أصول الشرع، أو أصول التشريع؛ لأنَّ الأصل في اللغة هو ما ينبنى عليه غيره، فالشَّرعُ مبنيٌّ أساسًا على الأدلة، الدينُ مبنيٌّ على الأدلة، ومن هنا أيضًا يُطلَقون على الأدلة أنها مصادر التشريع.

فالمصدر هو ما يتفرع عنه غيره وتتبع منه الأشياء، فالأدلة هي ما ينبنى عليها بنيان هذا التشريع، والأدلة هي التي يتفرع منها كل شيء أنت تلتزمه في هذا الدين، ومن هنا تفهم هذه المنظومة الكبيرة، منظومة هذا التشريع الذي ليس فيه خيال، وليس فيه أوهام، وليس فيه مجالٌّ لأنْ يَخْتَرعَ أحدٌ شيئًا في هذا الدين، لا يقول أحدٌ كلمة ولا يُخبر بشيء، ولا يستنبط استنباطًا إلا في وجود الدليل، فهذا يجعل المؤمن يطمئن قلبه، لماذا؟ لأنه يعلم أنه ليس هناك شيء في دين الله إلا وعليه برهان، وعليه دليل ناصع.

حسنًا، هذا بالنسبة لمسألة المفهوم العام للدليل.

تقسيمات الأدلة

ما هي الأدلة؟ ما هو الدليل الشرعي أصلاً؟ ما الذي يَسْتَدِلُّ به أهل العلم إذا أرادوا أن يستدلوا على أمر شرعي؟ العلماء قَسَموا الأدلة بعدة اعتبارات سوف نختصر في هذه التقسيمات إلى أهم التقسيمات التي وردت، فمنها مثلاً:

تقسيم الأدلة بحسب الاتفاق أو الاختلاف عليها

التقسيم الأول - وهو التقسيم الأشهر - هو تقسيم الأدلة بحسب الاتفاق أو الاختلاف عليها، هل هذا الدليل مُتَّفَق عليه أم هذا الدليل وَرَدَ فيه خلاف؟

قالوا: لدينا قِسْمٌ مِنَ الْأَدِلَّةِ، هذه الْأَدِلَّةُ تُعْتَبَرُ مُتَّفَقَةً عَلَيْهَا فِي الْجُمْلَةِ، أَلَا وَهِيَ: "الكتاب - القرآن -، والسُّنَّةُ، وَالْإِجْمَاعُ، وَالْقِيَاسُ". وهذه مُتَّفَقَةٌ عَلَيْهَا فِي الْجُمْلَةِ. وَإِنْ كَانَ مِثْلًا فِي الْإِجْمَاعِ قَدْ يُنَازَعُ فِي بَعْضِ الْمَسَائِلِ فِيهِ. الْقِيَاسُ هُنَاكَ طَائِفَةٌ أَنْكَرَتِ الْقِيَاسَ وَإِنْ كَانَ رَأْيُهُمْ يَعْتَبَرُ خَاطِئًا. فِي الْجُمْلَةِ نَقُولُ: الْكِتَابُ، وَالسُّنَّةُ، وَالْإِجْمَاعُ، وَالْقِيَاسُ، هِيَ مِنَ الْأَدِلَّةِ الْمُتَّفَقَةِ عَلَيْهَا.

وَهُنَاكَ أَدِلَّةٌ اِخْتَلَفُوا فِيهَا: فَرِيقٌ قَالَ: هَذَا مِنَ الْأَدِلَّةِ، وَفَرِيقٌ قَالَ: هَذَا لَيْسَ دَلِيلًا أَصْلًا، وَهُنَاكَ مَنْ قَالَ: هُوَ دَلِيلٌ وَلَكِنْ بَقِيدٌ، أَوْ هُوَ دَلِيلٌ يُسْتَأْنَسُ بِهِ، وَنَحْوَ هَذَا، وَهِيَ نَذَرْنَاهَا إِجْمَالًا:

الاستحسان، والاستصحاب، والمصالح المُرسَلَة، والعرف، وشرع من قبلنا، ومذهب الصحابي، وسد الذرائع.

أنا لا أريد هنا أن أفصل في هذه الأدلة كلها، لكن أذكرها إجمالاً، ولعل يكون لنا إن شاء الله لقاءات لشرحها.

لكن الذي يهمني في هذا المقام هو الدليلان الكبيران: القرآن، والسنة، وهذا هو الذي سيكون محور التفصيل لدينا.

تقسيم الأدلة من حيث أصلها

هناك تقسيم آخر ألا وهو: تقسيم الأدلة من حيث أصلها، ما هو أصل هذا الدليل وما هي طبيعته؟

فهنا قَسَمُوا الْأَدِلَّةَ إِلَى قَسَمَيْنِ: مَصَادِرَ نَقْلِيَّةٍ، وَمَصَادِرَ عَقْلِيَّةٍ، مَا مَعْنَى هَذَا؟

مَصَادِرٌ نَقْلِيَّةٌ: أَيُّ هِيَ الْمَصَادِرُ الَّتِي لَا دَخَلَ لِلْمُجْتَهِدِ فِيهَا، الْمُجْتَهِدُ لَا يُعْمَلُ فِكْرُهُ وَعَقْلُهُ لَيْسَتْ تَبْطِئُهَا، إِنَّمَا هِيَ أَدِلَّةُ الْمُجْتَهِدِ يَسْتَعْمِدُهَا وَيَكُونُ مَحَلَّ اجْتِهَادِهِ فِي تَفْرِيعِ الْأَحْكَامِ عَلَيْهَا، فَهَذَا الدَّلِيلُ أَصْلٌ بِذَاتِهِ يَأْخُذُهُ هَكَذَا كَنَصٍّ.

وهذه الأدلة التي تُسَمَّى بِالْأَدِلَّةِ النَقْلِيَّةِ: الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ طَبَعًا هَذِهِ وَرَدَتْ إِلَيْنَا عَنْ طَرِيقِ الْإِخْبَارِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، ثُمَّ الْإِجْمَاعُ، وَالْإِجْمَاعُ لَا يَنْعَقِدُ إِلَّا بِدَلِيلٍ، لَا تُجْمَعُ الْأُمَّةُ إِلَّا بِنَاءِ عَلَى دَلِيلٍ، وَكَذَلِكَ الْعُرْفُ، وَشَرَعُ مَنْ قَبْلَنَا، وَمَذْهَبُ الصَّحَابِيِّ.

الكتاب، السُّنَّةُ، الْإِجْمَاعُ، الْعُرْفُ، شَرَعُ مَنْ قَبْلَنَا، مَذْهَبُ الصَّحَابِيِّ.

كل هذه الأدلة هي أدلة موجودة، والمجتهد يستخدمها.

وهناك القِسْمُ الْآخَرُ الَّتِي يَطْلُقُونَ عَلَيْهَا الْمَصَادِرَ الْعَقْلِيَّةَ، مَا مَعْنَى مَصَادِرَ عَقْلِيَّةٍ؟

لاحظ، مصدرٌ عَقْلِيٌّ لَا يُقْصَدُ بِهِ أَنَّ الْعَقْلَ هُوَ الَّذِي اخْتَرَعَهُ، لَيْسَ لَدَيْنَا سُلْطَانٌ لِلْعَقْلِ الْبَشَرِيِّ فِي مَسْأَلَةِ التَّشْرِيعِ أَنَّهُ يُشَرِّعُ مِنْ قَبْلِ نَفْسِهِ، أَوْ أَنَّهُ يَأْتِي بِشَيْءٍ مِنْ عِنْدِهِ، إِنَّمَا وَظِيفَةُ الْعَقْلِ هُوَ الْجَهْدُ فِيمَا وَرَدَهُ مِنَ النُّصُوصِ، الْجَهْدُ

فِيمَا لَدَيْهِ مِنَ الْأَدِلَّةِ، فَهَذَا هُوَ مَقْصُودُ الْأَدِلَّةِ الْعَقْلِيَّةِ أَوْ الْمَصَادِرِ الْعَقْلِيَّةِ أَيُّ: هِيَ تَنْشَأُ مِنَ الْجَهْدِ الْمُجْتَهِدِ، الْمُجْتَهِدُ يَنْظُرُ ثُمَّ يُخْرِجُ لَكَ هَذَا الدَّلِيلَ، مِنْهَا: الْقِيَاسُ، الْاسْتِحْسَانُ، الْمَصَالِحُ الْمُرْسَلَة، وَسَدُّ الذَّرَائِعِ.

مثلاً القياس، القياس هي عملية يأتي المجتهد ويقول لديّ نصّ وَرَدَ في مسألة، ولديّ مسألة لم يرد فيها النصّ، هذه المسألة تُلحق بتلك المسألة لوجود شيءٍ جامع بينهما يُسمى "العلة".

مثال: لدينا الخمر، حُرِّمَت الخمر بالنصّ، لدينا حالياً أشياء لا تُسمّى بالخمر مثل المخدرات، المخدر، الكوكايين، الهيروين، ونحوها وكل هذه، هذه لا تُسمى عندنا خمرًا، هل ورد فيها نصّ؟ ليس لديّ نص بتحريم الهيروين، ليس لديّ نص بتحريم كذا، هذه الأشياء ما حكمها؟

هنا يأتي المجتهد ويقول: النصّ حَرَّمَ الخمر، لماذا؟ ما علة هذا التحريم؟ فحَرَّمَ الخمر بالنصّ لأنه علتته ماذا؟ الإسكار، استتبط العلة، أو العلة صار منصوص عليها، فوجدنا أنّ الخمر تُسكّر، ثم وجدنا مادةً أخرى أيضاً تُسكّر فلما كانت علة هذه هي علة ذلك أجرى المجتهد عملية تُسمى "القياس" ففاس هذا على ذلك فأخذ هذا حُكْم ذلك.

هذا هو الذي عَيَّنَاه بالمصادر العقلية؛ لا يكون هناك استقلال للتشريع للعقل الإنساني، العقل الإنساني لا مستقلّ بإثبات الأحكام.

مرجع جميع الأدلة إلى الوحي

وهذا ينقلنا إلى هذه النقطة أنّ مرجع جميع الأدلة إلى الوحي، الأدلة من الوحي.

ما هو الوحي؟

والوحي هو ما أوحاه الله - سبحانه وتعالى - إلى رسوله - صلى الله عليه وسلم - من القرآن، وكذلك من السنّة، السنة وحي؟ نعم السنة وحي، ولكنه وحيًا ليس كالقرآن.

القرآن: مُوحى به إلى رسولنا - صلى الله عليه وسلم - بلفظه ومعناه، فهو هكذا بحروفه ومعانيه.

أما السنّة: فهي مُوحاة إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بمعناها، ثم ألفاظها من رسولنا صلى الله عليه وسلم.

الأدلة على أن السنة وحي

ما الدليل على هذا؟ من الذي قال أن السنّة وحي؟ الأدلة على هذه كثيرة، وهذه نقطة مهمة جدًا وتفيدنا في معرض الحجاج ومعرض الاستدلال مع الذين ينازعون في حُجِّيّة السنّة ومكانة السنة، فنقول لهم بدايةً اعلّموا أنتم تتكلمون في ماذا، أنتم تتكلمون عن السنة، والتي هي أحد شقّي الوحي الذي أُوحى به إلى رسولنا - صلى الله عليه وسلم -.

ما الدليل؟

الدليل أولاً: قَوْل الحَقِّ - سبحانه وتعالى -: "وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ" النجم: ٤، ٣.

إذن الآية هنا ذكّرت أنّ رسولنا - صلى الله عليه وسلم - إذا تكلم وكان كلامه في معرض التشريع فهذا الكلام ما هو إلا وَحْيٌ يُوحَى، حصّر وقصّر، لا ينطق عن الهوى، لا يتكلم من مخض هواه، ولا يتكلم من مجرد أشياء فُكّر فيها، أو

اجتهد فيها، "إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى"، وحتى لو كان هناك اجتهادٌ من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فهذا الاجتهاد أيضاً يخضع للوحي، إن كان اجتهاداً في بعض المسائل وكان هناك فيها الصواب يأتي الوحي ليُقرّر هذا الاجتهاد، وإن كان هناك ما هو أصوب ينزل الوحي بما هو أصوب وهكذا.

وهناك أدلةٌ أخرى ومنها: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: "أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ.." الكتاب هو القرآن، ومثله معه هذا هو السنة، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر بهذا، أنه أوتي الكتاب، أُوحِيَ إليه بالكتاب ومثله معه؛ ألا وهي السنة.

ثم أخبرنا -صلوات الله عليه- بما حَدَّثَ ورأيناه في عصرنا هذا، فقال: ".. أَلَا يُوشِكُ رَجُلٌ شَبَعَانٌ عَلَى أُرِيكَتِهِ يَقُولُ: عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْقُرْآنِ، فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلَالٍ فَأَحِلُّوهُ، وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ.." صححه الألباني، وسبحان الله هذا هو ما حدث فعلاً، جاءنا الشبعان المتكئ على أريكته، ويقول: نحن قرآنيون، نحن لا نؤمن بالسنة، نحن ننازع في السنة. هذا من أعلام النبوة أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر أن هناك مَنْ سيطعن في سنته ويقول لا تأخذ إلا بالقرآن وهم ضلّالٌ في هذا.

ومن الأدلة كذلك ما حدث فعلياً في حياة النبي -صلى الله عليه وسلم- مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْوَحْيَ كَانَ يَنْزِلُ بِشَيْءٍ يَتَكَلَّمُ بِهِ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي سُنَّتِهِ، مِنْهَا مَثَلًا:

عن أبي قتادة -رضي الله عنه- قال: جاء رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ صَابِرًا مُحْتَسِبًا مُقْبِلًا غَيْرَ مُدْبِرٍ أَكْفَرُ اللَّهُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: نَعَمْ. فَلَمَّا وَلَّى الرَّجُلُ نَادَاهُ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَوْ أَمَرَ بِهِ فَنُودِيَ لَهُ، قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: كَيْفَ قُلْتَ؟ فَأَعَادَ عَلَيْهِ قَوْلَتَهُ، فَقَالَ لَهُ -صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ-:

"إِنْ قُتِلْتَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، صَابِرًا مُحْتَسِبًا مُقْبِلًا غَيْرَ مُدْبِرٍ، كَفَرَ اللَّهُ عَنْكَ خَطَايَاكَ إِلَّا الدِّينَ، كَذَلِكَ قَالَ لِي جَبْرِيلُ آنِفًا" صححه الألباني.

أي إنه لَمَّا قَالَ لَهُ أَنْتَ إِذَا قَاتَلْتَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مُحْتَسِبًا مُقْبِلًا غَيْرَ مُدْبِرٍ لَمَّا أَجَابَهُ فِي الْإِجَابَةِ الْأُولَى نَزَلَ جَبْرِيلُ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- وَأَضَافَ هَذَا الْقَيْدَ أَنَّ الشَّيْءَ الَّذِي لَا يُغْفَرُ لَكَ إِنْ قُتِلْتَ شَهِيدًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ هُوَ الدِّينُ. إذن هذه دلالة واضحة على أَنَّ الْوَحْيَ كَانَ يَنْزِلُ بِشَيْءٍ يَلْفِظُ بِهِ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي سُنَّتِهِ.

كذلك عن يعلى بن أمية "جاء رجلٌ إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو بالجعرانة.." مكان خارج مكة "عليه جبةٌ وعليها خلوقٌ، أو قال أثرٌ صُفْرَةٌ، فقال: كيف تأمرني أن أصنع في عمري؟ قال: وأنزل على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الوحي، فسُتِرَ بثوبٍ. وكان يعلى يقول: وددتُ أني أرى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقد نزل عليه الوحي.." لم يكن قد رَأَى النبي -صلى الله عليه وسلم- في هذه الحالة يريد أن يراه في حال الوحي إليه..

".. قال فقال: أَيَسْرَكَ أَنْ تَنْظَرَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ نَزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ؟ قَالَ فَرَفَعَ عَمْرُ طَرْفَ الثَّوْبِ. فَنظَرْتُ إِلَيْهِ لَهُ غَطِيطٌ.." يعني كان الوحي فيه شدة على نبينا -صلوات الله عليه- .. قال: فلما سُرِّي عنه قال: أينُ السائلُ عن العُمرة؟ اغسِلْ عنكَ أَثَرَ الصُّفْرَةِ، أَوْ قَالَ أَثَرَ الْخَلْقِ، وَاخْلَعْ عَنْكَ جُبَّتَكَ. واصنَعْ فِي عُمَرَتِكَ مَا أَنْتَ صَانِعٌ فِي حِجِّكَ" صحيح مسلم.

فما الشاهد من هذا الحديث؟ الشاهد من هذا الحديث أن الرجل سأل النبي -صلى الله عليه وسلم-، والنبي -صلى الله عليه وسلم- في هذه اللحظة بعد سُؤَالِهِ مُبَاشَرَةً أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيَ فَلَمَّا سُرِّيَ عَنْهُ أَجَابَهُ النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم- بإجابة السؤال، هل أجابه بالقرآن؟ أجابه بالسنة.

فهذه بعض الأدلة التي نستطيع أن نستدل بها في هذا المقام، وهناك أدلة أكثر من هذا، ولكن نكتفي بهذا القدر.

الإجماع والقياس يعودان إلى الدليل والدليل يعود إلى الوحي

إذن السنة وحيي، والقرآن وحيي، ثم سائر الأدلة في مجملها تعود إلى القرآن والسنة، الأدلة مهما كانت تنبني على القرآن والسنة.

الإجماع: لا يتعقد الإجماع إلا بناءً على الدليل، لا يتصور أصلاً أن يكون هناك إجماع إلا بوجود دليل، وبالتالي أصل الإجماع من القرآن والسنة.

كذلك القياس، نحن ذكرنا منذ قليل عملية القياس ما هي؟ مسألة فيها نصّ ومسألة لم يرد فيها النص فقاوسوا المسألة التي لم يرد فيها النص على المسألة التي ورد بها النص، يبقى إذن الأصل كان ماذا؟ كان في النصّ أو كان في الدليل، فهنا الدليل لديّ كان هو الأصل في القياس، ثم سائر الأدلة بعد ذلك ترجع إلى هذا الأمر، ترجع إلى مسألة الدليل.

يبقى إذن لدينا مفهوم الدليل، وعرفنا ما هي الأدلة، بقي أن نتكلم عن الأدلة نفسها.

أول الأدلة: القرآن

أول دليل لدينا هنا هو القرآن، ما هو القرآن؟

ما هو القرآن؟

القرآن لغةً مصدرٌ قرأً يقرأ قراءةً وقرآنًا، هذا في اللغة، يُقالُ قرأ يقرأ قراءةً، ويقول قرأ يقرأ قرآنًا.

ومنه قول الحقّ -سبحانه وتعالى-: "وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا" الإسراء: ٧٨، أي قراءة الفجر. ثمّ طبعا اشتهر هذا اللفظ وصار الاستعمال الشرعي هو الغالب، يعني ما صرنا نسمع كلمة القرآن إلا ونحن نعي بها المفهوم بالمدلول الشرعي.

غلب الاستعمال الشرعي على الاستعمال اللغوي حتى لا نكاد نستعمل القرآن اللغوي أساسًا.

إذا أردنا أن نعرّف القرآن من الناحية الاصطلاحية نضع له تعريفاً، في الواقع يعني القرآن أشهر بالطبع من أن يُعرّف، ومسألة تعريف القرآن لعل فيها عُسر، لكن سنذكر بعضاً مما استخدمه العلماء في تعريف القرآن، فقالوا عنه في التعريف الذي وضعوه:

هُوَ كَلَامُ اللَّهِ -تَعَالَى-، الْمُنزَّلُ عَلَى نَبِيِّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، الْمُعْجَزُ بِلَفْظِهِ وَمَعْنَاهُ، الْمُتَعَبَّدُ بِتِلَاوَتِهِ، الْمُنْقُولُ إِلَيْنَا بِالتَّوَاتُرِ الْمَكْتُوبِ فِي الْمَصَاحِفِ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ إِلَى آخِرِ سُورَةِ النَّاسِ.

كيفية الاستدلال على أن القرآن دليل

طبعاً أنت بالنسبة لك كمسلم لا مشكلة لديك أصلاً في مسألة تعظيم القرآن، والإيمان بالقرآن، ولا مشكلة لديك في تقديمه في الاستدلال، ولا مشكلة لديك في العمل بما فيه، لكن مما لا شك فيه بالطبع أننا نعيش الآن في عصرٍ تكاثرت فيه الظلمات، الشبهات، وهناك حربٌ لا هوادة فيها يشنها أعداء الدين على الإسلام ككل، وعلى أدلة الإسلام، طبعاً من أبرز المطاعن التي يطعن فيها أهل الإلحاد ومن يعادون هذا الدين أبرز ما يطعنون فيه هو القرآن ذاته، فمن الأمور التي تزيد المؤمن يقيناً وتزيده رسوخاً أن يتعلم الاستدلال على الدليل.

كيف أستدلُّ أنا على أن هذا القرآن الذي أُعْظِمُهُ وَأَتَعَبَّدُ بِهِ أَنَّهُ وَحْيٌ مِنَ اللَّهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-؟ فنقول: ليس هناك شيءٌ أوحى الله به إلا وعليه أمانة وليس هناك رسولٌ أُرْسِلَ مِنَ اللَّهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- إلا ومعه أدلةٌ ومعه البراهين التي تدلُّ على صدِّقه، وإلا فالسؤال المنطقي ما الذي يقنعني أنك رسولٌ؟ ما الدليل على أنك نبيٌّ؟ وإلا فالذي يدعي النبوة كثيرون، والذين يدعون أنهم يُوحى إليهم كثيرون، فإذاً النبي الصادق، والرسول الصادق، هناك أماراتٌ على صدِّقه، وهناك أدلةٌ على أنه نبيٌّ مُرْسَلٌ.

فما الذي يدلُّك على أن هذا القرآن وَحْيٌ مِنَ اللَّهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-؟

الإعجاز في القرآن

هذا يجعلنا نقف عند مسألة الإعجاز. الإعجاز الوارد في القرآن هي أدلة صدق هذا القرآن.

ما هو الإعجاز؟

ما هو الإعجاز؟ الإعجاز في اللغة تعني نسبة العجز إلى الغير، أنا أعجزتُ فلاناً أي جعلته عاجزاً، جعلته لا يستطيع أن يقف أمامي، لا يستطيع أن يتحداني.

فالمُعْجَزَةُ فِي الْمَعْنَى الْإِصْطِلَاحِيَّةِ عِبَارَةٌ عَنْ أَمْرٍ خَارِقٍ لِلْعَادَةِ، مَقْرُونٌ بِالتَّحْدِي، سَالِمٌ عَنِ الْمَعَارِضَةِ.

مرة أخرى، المعجزة أمر خارق للعادة، شيء ليس مألوفاً لدينا في المعتاد، ليس هذا فقط بل ويُقْرَنُ بِالتَّحْدِي، تكون المعجزة فيها تَحَدٍّ لِمَنْ يَتَّصِدُّ لِهَذِهِ الْمَعْجَزَةِ، أَوْ لِهَذِهِ الدَّعْوَةِ، سَالِمٌ مِنَ الْمَعَارِضَةِ وَإِلَّا فَلَوْ أَتَى الْإِنْسَانَ بِشَيْءٍ خَارِقٍ

للعادة واستطعتُ أنا أن أفنِّدها، مثل الذي يزعم مثلاً أنه يشقُّ الإنسان نصفين ثم أكتشِفُ بعد ذلك أنها خدعة عارضتهُ وبيَّنتُ أن هذا الأمر مجرد خدعة تنظلي على عقول البسطاء، لكن لو وجدتُ معجزةً أمرًا باهرًا لا أستطيع أن أفنِّدها ثبتت المعجزة وكان هذا دليلًا على صدق من جاء بالمعجزة.

أوجه الإعجاز في القرآن الكريم

فما هي أوجه الإعجاز في كتاب الله - سبحانه وتعالى -؟

طبعًا أول شيء يرد في الذهن مسألة الإعجاز العلمي، لماذا؟ لأنها اشتهرت حقيقةً في العصر الحالي، خاصةً نحن نعيش في عصر صار العلم له طغيان، وصار له صولة بين الناس، فصار الناس يتكالبون على مسألة العلم، وكيفية الاهتمام بالعلم، وصار يعني بين الناس حاليًا مسألة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة لها مكانة عظيمة.

الإعجاز اللغوي

لكن في الواقع إذا أردنا أن ننظر إلى أوجه الإعجاز في القرآن الكريم هناك الوجه الأول، الوجه الذي نزل به القرآن أصلاً، الإعجاز اللغوي.

فالرسول - صلى الله عليه وسلم - خاطب من؟ خاطب العرب، أصحاب اللغة، أرباب الفصاحة، الذين كانوا يعيشون على اللغة أساسًا، حياتهم مبنية على اللغة، كما قال بعض المؤرخين: "أن العرب حُرِّمُوا الطَّعَامَ وَرُزِقُوا الكَلَامَ"، ما كان لديهم إلا بضاعتهم اللغوية، كانوا يحرصون على نقاء اللغة ونقاء النسب كحرصهم على حياتهم، فالعرب في لغتهم يهتمون بها اهتمامًا لا يدانيه أي اهتمام، ولا يقرب منه اهتمام أي أمة بلغتها.

فلأجل هذا كانت المعجزة من صُلب ما يتقنون، ومن صُلب ما يُحسِنون، ألا وهي اللغة. فالنبي - صلى الله عليه وسلم - أتاهم بكلامٍ عربيٍّ "بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ" الشعراء: ١٩٥، جاءهم يتحدَّاهم فيما يُحسِنون.

ثم كان التحدِّي لهم على مراحل:

المرحلة الأولى: التحدي بالقرآن كله. هل تستطيعون أن تأتوا بقرآن كهذا القرآن؟ فقال الحق - سبحانه وتعالى -:

"قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا" الإسراء: ٨٨.

ثم نزل التحدي قليلاً، اتنوا ولو بعشر سور. كما قال الحق - سبحانه وتعالى -: "أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۗ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" هود: ١٣.

ثم نزل التحدي بعد ذلك بسورة واحدة، "أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۗ قُلْ فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِّثْلِهِ" يونس: ٣٨، وقال - تعالى - أيضاً: "وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ" البقرة: ٢٣.

فلم يستطيعوا ولن يستطيع أحد.

ولازال هذا التحدي قائماً، وهذا مما يجمله كثيرٌ من الناس، التحدي والإعجاز اللغوي لازال قائماً، وكُلٌّ مَنْ يَطْعَن في القرآن نقول له: ائتِ بمثله.

وهناك للمعلومة هناك مَنْ حاول في العصر الحديث فعلاً أن يفعل هذا، وهناك مَنْ حاول أن يأتي ببعض التَّظْم الذي يشابه القرآن، لا أقول قديماً بل في العصر الحديث، وبعد سنواتٍ مِنَ الجهد والمحاولة رفع راية الاستسلام وأعلن أن فعلاً هذا القرآن يَصُعبُ جدًّا أن يأتي الإنسان بشيءٍ مِنْ مثله.

فسبحان الله هذا أول أَوْجُه الإعجاز ولازال قائماً.

الإعجاز التشريعي

هناك أيضاً مِنْ أوجه الإعجاز إعجازٌ لا يكاد المرء يظنُّه إعجازاً لكنه مِنْ أوجه الإعجاز الباهرة، ألا وهو الإعجاز التشريعي، هذا القرآن نزل بتشريعٍ كاملٍ متكامل، نُزل به على رجلٍ عاش في قومه أمياً لا يقرأ ولا يكتب ولم يَطَّلِع على أيِّ نظامٍ تشريعيٍّ أصلاً، ما كان لديه إلا ما عاش عليه آباؤه وأجداده، ثم أتى للناسِ بنظامٍ تشريعيٍّ مُحْكَمٍ مُتَّكَمِلٍ في كُلِّ النواحي الحياة، في علاقة الإنسان مع ربه، في علاقة الإنسان مع إخوانه، في علاقة الإنسان مع جيرانه، في علاقة الإنسان في مجتمعه، في علاقة هذا المجتمع بالمجتمعات الأخرى، في علاقة الدولة بالدُول الأخرى، أَوْجُه في منتهى الدقة، وتتميز بالعدل، والإحسان، ومكارم الأخلاق، تشريعٌ مُتَّكَمِلٌ مَبْنِيٌّ على قواعد صلبة، هل هذا التشريع يخرج أبداً من عقل بشر؟

نحن نظرننا في الأوجه التشريعية التي خرج بها البشر ووجدنا العوار، ووجدنا فيها التفاهة، ووجدنا فيها المشقَّة مِنْ حيث يظنُّ الإنسان أنه يُبَدع، مثل مثلاً:

عندما تفتقت أذهانهم عن النظام الشيوعي ها قد نظرنا قامت وصارت لها دولة وامتدت إلى سنواتٍ عديدة ثم ماذا بعد ذلك؟ انهار النظام بالكلية، وانهارت الفكرة، هذا نموذج لنظام تشريعي بشري.

ولازالت الأنظمة التشريعية البشرية تُثبِتُ فشلها يوماً بعد يوم، ولازال النظام التشريعي الإسلامي قائم، وسيعود ويسود كما كان قبل ذلك إن شاء الله، فهذا مِنْ أوجه الإعجاز التي لا يتخيَّلها أحد.

الإعجاز العلمي

ولا نُنكِرُ بالطبع وجود الإعجاز العلمي في القرآن وفي سُنَّةِ النبي -صلى الله عليه وسلم-.

وإن كنت أريدُ أن أُشير إلى أن القرآن أساساً كتاب هداية، ليس كتاب علوم وكتاب معارف، هو كتاب هداية للناس، أوحى به الحق -سبحانه وتعالى- لهداية البشر، لكن وردت فيه بعض الأشياء التي فيها فعلاً أوجه الإعجاز منها مثلاً:

الإعجاز في وَصْف مراحل خَلْق الإنسان، لاحظ هذا الوصف الدقيق لمراحل الخَلْق: نطفة، علقة، مضغة، ثم وجود العظام، ثم اللحم، ثم غيرها، هذا الوصف الدقيق مَنْ الذي تكلم به؟ تكلم به إنسان من أربعة عشر قرناً حيث لم يكن هناك أيّ تصوّر أصلاً لكيفية خلق الإنسان.

أتدرون أنّ هناك كانت نظرية ظلّت سائدة إلى القرن التاسع عشر الميلاديّ ألا وهي تُسمّى نظرية "الإنسان القزم" كانوا يتخيلون أن الإنسان عبارة عن يُولد أو يكون في نطفة الرجل على هيئة قزم، ثم يكبر بعد ذلك، لم يعلموا أصلاً وجود الأطوار، نطفة، علقة، مضغة، إلى آخر هذه الأطوار، إلا في القرن العشرين، لما بدؤوا في اختراعات المجهر، فيأتي مَنْ يخبرهم بهذه التطورات، وأن الإنسان ينقلب في حياته أطواراً مِنْ قبل اكتشافهم هذا بأربعة عشر قرناً، وهذا من أوجه الإعجاز التي تدلّ على صدق هذا الكتاب، وهذا ما أقرّ به المنصفون في هذا العصر.

الخاتمة

هذه هي الأدلة على صدق هذا الكتاب، وبالطبع إذا ثبتت حُجّية الكتاب يبني عليه بعد ذلك الاستدلال بهذا الكتاب، وهذا هو إن شاء الله محوّر لقائنا القادم، نتكلم فيه عن الكتاب، ثم نُعرِّج على سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-.

أسأل الله -سبحانه وتعالى- أن يُعلِّمنا ما يَنْفَعنا وأن يَنْفَعنا بما عَلَّمنا.
أَقُولُ قَوْلِي هَذَا، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ العَظِيمَ لي ولكم.
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

تم بحمد الله

شاهدوا الدرس للنشر على النت في قسم تفرغ الدروس في منتديات الطريق إلى الله وتفضلوا هنا:

<http://forums.way2allah.com/forumdisplay.php?f=36>